

## الموقف الذاتي . . ومعاناة الواقع

دراسة نقدية في شعر محمد ابراهيم ابو سنة

بين الشاعر الذي يعيش. قرننا العشرين وتراثه . يأخذ من التراث قبالما يعطيه ويضيف اليه من خلال تعامله معه بداخل القصيدة الحديثة وتراكيبها المتطورة والجديدة . واننا لا نستطيع ان نعزل التطورات التي توصلت اليها القصيدة الحديثة منذ محاولات الرعيل الاول ابتداء من شعراء المهجر ( نعيمة وجبران وايليا ابو ماضي ) مروراً بمدرسة الديوان ( العقاد والمازني وشكري ) ، وبعدها مدرسة ابولو بانارها الرومانتيكية ، وحتى المدرسة الحديثة التي قفزت بالقصيدة العربية الى مستوى كيفي مختلف عن الاضافات التي اوجدتها مدرسة الديوان ، ومدرسة ابولو .

وتلك التجديدات المقصودة التي قدمها كل من السياب ، والبياتي ، والملائكة ، وعبدالصبور والحيدري، وعبدالمعطي حجازي هي التي استقرت بالقصيدة الحديثة في شكلها الحديث - حيث واكبت اعتبارات حضارية اثرت فيها ، وازافت اليها حساسية مختلفة تآثر بها الجيل الجديد من الشعراء . وقسي رأينا ان هؤلاء الشعراء الذين ثاروا على شكل القصيدة مثل السياب والبياتي - لم يتجاهلوا جميع القواعد الكلاسيكية . لكنهم طوروا في بعض جوانبها وتجنبوا البعض الاخر . وكما يقول بدر شاكر السياب : « ان الثورة الناضجة نوع من انواع التطور . . انها استعراض للماضي ، للتراث ، واهمال الفاسد منه ، والسير بالشئ الحسن قبه الى الامام ، فالثورة على القديم لمجرد انه قديم جنون وانتكاس - اذ كيف نستطيع ان نحيا وقد فقدنا ماضينا . . »

واذا كان فضل الريادة في المدرسة الحديثة يرجع بالدرجة الاولى الى ذلك الجيل - سالف الذكر - فان الجيل الذي تلا هؤلاء كان يمثل القاعدة العريضة للحركة

نقول كما قالوا - في البدء كان الشعر - وان شعر الذي هو ضرب من ضروب الفن المعاصر ، انتزع قيمته الانسانية في تمبيره المستمر عن الانسان في مختلف احواله المعاشية ، منذ البداوة الاولى التي كانت الفطرة هي شاغله الاول في تلبية احتياجاته الطبيعية المجردة من الثقافة والتعقيد ، وادائه الاولى في تلمس عناصر الحياة المادية والمعنوية ، واكتشافها ، وترتيب فوائدها في نظام معين يعينه على الحياة . فكان ذلك اللون التعبيري القائم على ترتيب المعاني في نسق صوتي جميل يحاكي ما تزخر به الطبيعة حوله من عناصر جميلة وغريبة تلبى احتياجا هاما يرتفع بقيمة الحياة الى مستوى ارقى . فالشعر هو الفن الذي يحرك عناصر الطبيعة من السكون والجمود اللحظي الى الحركة المتجددة عن طريق شمولية النظرة المتجددة للشاعر . ولقد ظل الشعر وحده يلبي تلك الحاجة ويعبر عنها طوال سنوات طويلة حتى ابتدع الانسان الوانا اخرى من الفن التعبيري - اذا استثنينا الموسيقى - فكان الشعر ضالما في مجموع الكون التعبيرية الاخرى مثل المسرح او القصة او الرواية . . التي اتت متأخرة الى حد كبير مع تغييرات اجتماعية كبيرة في العالم كله ادت الى تخطي الانسان لعدة مراحل من تطوره . لكن ظل الشعر رغم هذا يمثل اللحظة المكثفة امام عين الشاعر الذي يستطيع اقتناصها وتثبيتها في كلمات غنية بالمعنى الشمولي مع تقديم الاحاسيس الجمالية ، ولقد ظلت الصورة الشعرية برغم الوان الفن التعبيري الاخرى هي القيمة المستخلصة من الكم الهائل للكلمات والعبارات التي يرسلها الانسان باطراد . فهي الصدق والمعنى في جوهر جميل حي ومتناغم .

والحق ان الاتصال بين الشاعر الحديث وتراثه غير منفصمة ، كئمة علاقة وثيقة جدلية في مضمونها تقوم

ديوانه الاول « قلبي وغازلة الثوب الازرق » الذي صدر في عام ١٩٦٥ ، وكان يحوي قصائد كثيرة كتبت في مرحلة مبكرة من انتاج الشاعر الذي بدأ ينشر على صفحات الصحف والمجلات منذ اواخر الخمسينات .

وان عاب البعض على الشاعر ان معظم انتاجه وقصائده مبعثها الموقف الذاتي ، فاننا نرى انه برغم الموقف الذاتي المتواجد دائما عند الشاعر كمفجر لقرينته الفنية فان الشاعر في كثير من الاحيان كان يمكنه ان ينطلق من الذاتي الى الموضوعي في شموله وانطلاقه . وان كان من النادر ان يحدث العكس في خروج الخاص من العام . فالعام دائما يخرج من الخاص . ويقول الشاعر في الجزء الاول من قصيدة « رسائل الى حبيبة غائبة » .  
من ديوان « قلبي وغازلة الثوب الازرق » :

عامان يا ملاذي القديم  
عامان ما ازحت رأسي الكليل في وسادة الفيوم

.....

عينك كانتا السماء  
ازيح فيهما الهموم في المساء  
عبدت فيهما غناء نورس حزين

.....

تراك تذكيرين  
سويت لي القميص قد رفضت ما عليه من غبار  
سويت شعري الجموح قلت لي سلام  
وعندما اشرت لي الى اللقاء  
عريت ارضنا  
اخذت ما يظننا

وفي المقاطع السابقة من القصيدة ترى ان الشاعر يعيش بداخل اللحظة التحولة بدقائقها السعيدة والمفتقدة، ويصورها تصويرا حزينا ينبعث من حرارة التجربة الخاصة . لكن عندما ننظر الى الجزء الثاني من القصيدة نجد ان الشاعر يكون قد انتقل خارج تلك اللحظة المحددة والخاصة شديدة الخصوصية مازجا بين همه الخاص بالعام . فيقول :

— بالامس يا حبيبتي خرجت للطريق

لاقرأ الهموم في العيون

همومهم اولئك الذين يعبرون

في شارع المدينة الحزين

لعل هم وحدتي يهون

.....

.....

وطوق الزحام جثة تطفلة تنام في الدماء

ما زالت الحياة في الاعضاء

ووجهها حمامة تموت في الشفق

التجديدية التي قادوها وتشكلت على ايديهم ، وكان هذا الجيل من الشعراء ، وان تبع هؤلاء بحكم اتسلسل الزمني والتاريخي ابنا شرعيا للشعر الحديث ، فالمرحلة الحضارية التي عبروا فيها جميعا لم تكن مختلفة ، فقد نهلوا من منهل واحد ، واصابهم رذاذ المعارك التي خاضها هؤلاء مدافعين عن حرية الشاعر العربي في خلق جمالياته الخاصة في شكل القصيدة ومضمونها بحساسية العصر وذوقه ونبضه .

من هؤلاء الذين احتضنوا التجربة وعانقوها « محمد ابو سنة » مع اخرين نجدهم متناثرين في الاقطار العربية المختلفة « ممدوح عدوان ، محمد الماغوط في سوريا ، حسب الشيخ جعفر ، وعلي جعفر العلامة في العراق ، قاسم حداد في البحرين ، محمد عفيفي مطروا في دنقل ومحمد مهران السيد في مصر ، ومحمود درويش وسميح القاسم وعزالدين المناصرة ، وتوفيق زياد في فلسطين . . . الخ »

وهؤلاء جميعا كانوا جيش الشعراء القادم الذين كونوا الارضية التي استقرت عليها القصيدة الحديثة ، التي عرفت وشاعت منذ بداية الخمسينات ، واستقرت في الستينات ، فكانت لها الغلبة على القصيدة التقليدية . وساعد على تلك الولادة الطبيعية للقصيدة الحديثة في بنائها العماري المتطور ومضمونها الفكري الجديد ، الظروف السياسية المعاشية والمستوى الحضاري اندي وصل اليه الانسان العربي . فالمرحلة مرحلة افول للاستعمار القديم وبروز دور الطبقة البرجوازية المتوسطة الصاعدة والقائدة لامال الجماهير العربية في طموحها المستمر والمتجدد . فخرجت القصيدة معانقة لذلك المخاض الثوري ضد الاستعمار والعلاقات القديمة في المنطقة العربية ، وكانت دلالتها انعكاسا حقيقيا لذلك الواقع الجديد الذي بشرت به حركة التحرير التي انبثقت هنا وهناك من ارض الوطن العربي الكبير . وليس غريبا ان نجد انعكاس ذلك الواقع على هؤلاء الشعراء للجدد في انتصاراته مثلما حدث عام ١٩٥٦ ، وابان ثورة العراق في ١٩٥٨ ، وثورة الجزائر التي انبثقت في ١٩٥٤ ، وثورة اليمن في عام ١٩٦٢ ، والوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ . او في كبواته التي اصابتها ، واعتقد انه لن يختلف احد معي في ذلك - حيث عبرت القصيدة الحديثة احسن تعبير عن حالة الانسان العربي بعد ٥ حزيران ١٩٦٧ - ولقد ظلت ظلال ذلك اليوم على القصيدة حتى الان ، ولم يستطع ان يهرب شاعر واحد من ذلك التأثير الحزين . .

بذلك نرى ان هذا الجيل هو المعبر الحقيقي عما يعيشه الانسان العربي المعاصر في همومه اليومية ونظراته المستقبلية . ومحمد ابراهيم ابو سنة له سماته الشخصية الخاصة التي يمكن ان ينطبق عليها هذا الكلام منذ

الموقف السكوني الى موقف جديد يصور فيه الشاعر احوال الناس العاديين من الفلاحين ، حيث الرجل يعيش من خلال عمله في الحقل تساعده المرأة كما تقوم باعمال البيت فلا يوجد خدم او اجراء يقومون بتلك الاعمال . وبعد ان يصف الشاعر حياة حسان يقول :

كل الانجم رقصت في عرس الامس  
هدات قوق قراش الحب  
اوجاع الايام العمياء  
يسترجع بالاذن النشوى  
آخر كلماته  
في اول فجر بعد العرس  
يا اماه .. لا تدعي فاطمة تذوق عناء البيت

فلا احساس الرومانسي بالحب في القصيدة لا يتفرد ، بل ان الواقع يتدخل فيفرض على الشاعر ان يمزج بينه وبين ما يحسه حسان نحو حبيبته ، ويتطور الشاعر بالقصيدة الى موقف آخر . والذي يتمناه حسان لا يتحقق لان الظروف اقوى من تلك الرغبة ، ويسمع نداء الوطن الذي يطلب منه ان يهب للدفاع عنه . وبذلك نجد ان قصائد الحب عند الشاعر لم تكن تستمر عند موقف واحد مثل فيه الشاعر نظرته للمرأة الحبيبة او الصديقة او الخيلة . بل الحب كان مزيجا بين حب المرأة وحب الوطن .. يقول ..

- يا حسان كفى تجوالا في الحقل  
ولترجع لشراب الجنة  
لكن المدياع  
فاجاه في اول منحنيات القرية  
الوطن يريدك يا حسان  
.....  
انتشر نداء موجه  
يترقق فيه الدمع  
يا فاطمة الوطن مريض  
يا فاطمة الصبر ..

ويزداد احساس الشاعر الواقعي مما يؤدي الى زيادة امتزاج ذلك الواقع بعاطفته . والشاعر ليس بعيدا عن ادراك تأثير القيم المادية والاستهلاكية التي تنتشر في حياتنا ، وافسادهما المستمر للعواطف الانسانية ، وافقادها لكل ما هو نبيل ويشع الدفء في حياة البشر . وذلك جعل الشاعر يتناول الحب بطريقة غير مباشرة في قصيدة « ما اقسى البرد الليلة » من ديوان « الصراخ في الآبار القديمة »

- ما ابهظ ثمن الحب  
في عصر الثلجات  
كنا نحلم قبل الميلاد الازرق  
ان يأتي عصفور ذهبي الصوت  
بتغني لائنين التغا بالاشواق

فالموقف الذاتي في القصيدة يتطور من الاهتمام التلقائي والمباشر بالخاص الى ما يحدث حول الشاعر . حتى انه يلاحظ ما يعترى الوجوه التي يقابلها دون ان يعرف اصحابها ، حتى يقف في النهاية امام جثة الطفلة التي تسلسل منها الحياة .

\*\*\*

ولما كان للحب حيز كبير في انتاج الشاعر « محمد ابراهيم ابو سنة » - كان لا بد من التوقف امام ذلك لمحاولة فهم نوع هذه العواطف وكيف ينظر الشاعر الى المرأة - هل تتسم نظرته لها بالحسية كما نراه عند بعض الشعراء ؟ ام ان الشاعر يدور في اطار نظرة الرومانسيين ؟

اننا نجده يتناول الحب باشكال عديدة ، فيعبر عنه في اطوار مختلفة . الحب في لحظة ميلاده « قصيدة - اخر ازهر الموسم » من ديوان « حديقة الشتاء » ، ويصور فيها الشاعر عاطفته تجاه فتاته التي بلقاها كل يوم في المركبة . والحب الذي يرثيه الشاعر بعد ان دفن رضاع مثل قصيدة « انا وانت المذنبان » من ديوان « الصراخ في الابار القديمة » . والحب اللانهائي الذي يتداخل مع عناصر الطبيعة مثل قصيدة « الحب في التكوين » . والحب اثناء وداع الحبيب الذي يعرف انه لن يعود اليه ثانية مثل-قصيدة « صرخة الوداع » في ديوانه الاخير « اجراس المساء » ويقول في مقاطعها :

يخيفني ان يقبل انشء عاريا  
ويقبل الربيع دون خضرة  
والصيف دون سماء  
تخيفني المفاجأة  
يخيفني التوقع المير  
يخيفني الصباح مقبلا ومدبرا  
يخيفني المساء مقبلا ومدبرا  
تخيفني انهار هذا الليل

وهي تعبر الشوارع الخافتة الاضواء  
مليئة بالورق الذابل والحرائق السوداء

والشاعر في القصيدة قد عبر بصدق شديد وحساسية مرهفة عن ذلك الحب الحزين المفتقد دائما ، السدي لا يستمر ولا بد ان تذهب ساعاته الحلوة تاركة الهجر والبرد والتندم . ونستطيع ان نرى ان نظرته للحب في القصيدة تكون اكثر تطورا من القصيدة السابقة ، فلم تستغرقه المشاعر الرومانسية المجردة التي تعيش لوعة الحبيب . فالحب يأخذ صورا متعددة . فالشاعر يتجاوز الفنائية التقليدية مستخدما المنولوج مما يبعث بداخل القصيدة احساسا دراميا مثلما نجد في قصيدة « يقول الحب » من ديوان « حديقة الشتاء » التي تصور في مطلعها موقف الحبيب من حبيبته التي تزوجها ، وسرعان ما يتطور

ان يولد انسان في انسان  
.....  
المسكن ... صوت يصرخ  
الثلاجة .. حجرة نوم لاثثة باثنين  
البسط الايرانية

والشاعر يصور حياة قرينته بداخل قصائد كاملة . وفنما  
يقعها بداخل قصائده كخلفية بل انها تستغرق حيز  
قصائد كاملة . ولكن اي قرية هي التي يصورها الشاعر؟  
اننا لو حاولنا تحديد ملامح تلك القرية ، فاتنا نجده يصفها  
في قصيدة « ريفيات حزينة » من ديوانه الاول « قلبي  
وغازلة الثوب الازرق » بانها قرية عجوز تحمل على صفحة  
وجهها كثيرا من الغضون ، وليس لها عيون ، وتعيش في  
تمزق دائم بعد ان مات زوجها وترك لها الاود انصغار  
لتقوم على رعايتهم . القرية عنده ليست قرية « محمد  
حسين هيكل » المرفهة . انها قرية فقيرة مظلومة ودائما  
مضطهدة حتى اصابها العقم الدائم . وتلك الرؤية  
الشفافة الصادقة التي يعرض علينا الشاعر قرينته من  
خلالها تمثل شهادة شديدة الصدق والواقعية اتت دون  
موقف فكري مسبق ، ودون تحليل اقتصادي او سياسي  
تؤيده الحقيقة الواقعة . فيعلق الشاعر بتسلسل تلقائي  
ابعاد المأساة من خلال لغة شعرية جميلة وصور حزينة  
محددة . فيقول :

رايتها تميل فوق صفحة النهر  
رايت هذه العجوز قريني  
تكومت على حجر  
تطالع الغضون في المياه حملقت بلا عيون  
تمزقت من الضجر  
وصاحت الرياح حولها عقيم  
.....  
وقالت الرياح للعجوز كان حلم  
وتحت صفحة النهر  
ترعرعت وازهرت هناك جثة الالم  
وكومة الهشيم  
والريح في غضونها تصيح كان جلم  
ما زلت يا جدبية المنى عقيم

وتلك الكلمات التي اختارها الشاعر في قصيدته  
كي يصور بها قرينته المظلومة تمثل انعكاسا لواقع متخلف  
ومريض على شاعر لا يمثلك للناس من حوله سوى كلمات  
متدافعة من الحب .. ان كان الشاعر لا يصل من خلال  
ذلك الواقع الى ابعاد من الرؤية البسيطة المحدودة التي  
تقف عند حد الشهادة عليه وادانته بالفاظ شعرية رقيقة  
وناعمة . وذلك يرجع بالدرجة الاولى الى ان الحس التلقائي  
للشاعر لا يستطيع اكمال الدورة الجدلية ، لان انطلاقاته  
الاحادية من الخاص الى العام ثم التوقف تحد من تطوير  
رؤيته الشاملة الى مستوى النظرة الجدلية التي تكشف  
الروابط المتبادلة بين العلاقات المختلفة . لهذا كان في  
تصويره لهذه القرية ( المظلومة ) يتوقف كثيرا امام الصورة  
بتفاصيلها الكلية ، ولا يتدخل في تفصيلاتها الجزئية  
وتشابكاتها شديدة التعقيد . وذلك نراه واضحا في  
القصيدة المسماة « احزان قرية مصرية » من ديوان

وبرغم اهتمام الشاعر بعاطفة الحب التي برزت على  
سطح انتاجه في دواوينه الاربعة - الا ان التعبير عنه لم  
يكن تقليديا او حسيا ، بل كانت النظرة له دائمة التغير  
نتيجة التطورات الثقافية والفنية التي كان يصل اليها  
الشاعر . لقد كان الحب عنده كسمة عامة مصابا بالاحباط  
والتشاؤمية ، حب حزين مهجور في معظم الاحيان ، وليس  
غريبا ان تكون التجارب الصادقة محملة بذلك الامس  
الحزين المرفه التابع من اغتراب الشاعر الدائم . وذلك  
حدد للشاعر قاموسا متسعا من كلمات معينة تحمل  
نفس الدلالات ترددت كثيرا في اشعاره مثل - الفرق ،  
الشفق ، شواطئ الحياة ، الظلام ، التسق ، الدموع ،  
الاسى ، الارق ، المدن الغريبة ، دورة الافق ، البلى ،  
الانسان الواقف في وجه الشلالات ، الدموع ، البكاء ،  
اجنحة الليل ، القمر المجدد ، الرياح ، العقيم ، الطائر  
العقيم ، الضجر ، الرياح العجوز ، الصراخ ، الرحيل ،  
الشتاء .

واننا نتساءل امام ذلك القاموس من الكلمات  
والتعبيرات التي تتوارد كثيرا في انتاج الرومانسيين : هل  
الشاعر محمد ابو سنة ينتمي للمدرسة الرومانسية ؟

الواقع ان النموذج الرومانسي بابعاده المعروفة لا  
يمكن ان ينطبق على ابي سنة ، وربما يكون السبب في  
ان الحب نال اهتماما كبيرا من الشاعر ظروف الشاعر  
الخاصة التي تجنح به دائما نحو البحث عن المثال .  
المثال في اي شيء حتى في المرأة ، الى جانب غربة الشاعر  
التي جعلته بعيدا عن اهله الذين يعيشون بالريف . فكان  
وحيدا منذ الصغر داخل المدينة الكبيرة المترامية التي  
تذوب فيها الخصوصية . ومن هنا كان احساس الشاعر  
بضرورة الحب ، وافتقاده الدائم ، وقد تجسد ذلك في بحثه  
الدائم عن المرأة الصديقة او الحبيبة ، وغيابها الدائم عنه .  
فهي الكامن الوحيد الذي يمكن ان يسد فراغ الشاعر  
ويطوي احساسه بالاغتراب والضيق الناتج من الوحدة  
على المستوى المادي بابعادها النفسية في المدينة  
الصاخبة .

\*\*\*

ولما كان وعي الشاعر قد تفتح بالقرية قبل وصوله المدينة  
- فان لذلك اثره الكبير في اهتمامه بالريف . وكثيرا ما  
يعود الشاعر الى قرينته عودة نفسية وفكرية مثلما يعود  
اليها في واقعه عودة جسدية قسي بعض الاحيان .

« اجراس المساء » . والقصيدة تصور القرية من اربعة جوانب يقول فيها :

حين دخلت القرية  
لم تكن الاغنية تقول  
ما أحلاها عيشة الفلاحة  
كانت بدرية ترخي اطراف اثوب

في هذا الجانب حدد الشاعر رؤيته باختصار . فالقرية - قريته - لم تكن هي التي يفنون لها في المدياع الاغاني الكاذبة . فليست الفلاحة انسانا معزواً ومكرماً ، بل انه يعيش حياة صعبة وقاسية . ويقول ايضا :

تفتح ارحام عذارى القرية  
فوق الاشواك الليلية  
تنبت فيها الاعشاب المسمومة  
تمتلئ القرية بالقطط العمياء  
تمتلئ القرية بالقطط العمياء

وكذلك يصور الشاعر - في الجانب السابق - حالة القرية ، وكيف وصل القهر بفتيات القرية الى الحد الذي جعلهن يخلعن جميعاً اودية الطهر والبراءة ، وبدأن يسرن عرايا على ضفاف النهر العجوز ، بينما الحب غائب وضائع .

ويقول ايضا :  
والاطفال الجوعى  
يمتصون العشب الذابل  
من ثدي الارض المترهل  
حين نظرت لعيني احد الاطفال  
فاجاني وجهي مشقوقا بالسيف

والمقطع السابق يصور الجوع الذي يقتل اطفال القرية . فانه الموت كان اماما للجميع يصلون وراءه باستسلام كامل .

وعلى ذلك فانه لا مجال ان تفسد تلك القرية التي ظلمها اغنياؤها ومترفوها . وليس غريباً ان نجد فسي المقطع الاخير ان ابنة الشيخ الطيب قد احترفت الدعارة . اما زوجته فقد هربت بعد ان خانتها مع احد اللصوص .

والملاحظ ان القصائد التي تهتم بالقرية عند ابي سنة تكون متناثرة في الديوان الاول مثل « القرية المرتعشة » من قريتي الى مرفهة ، حكمة هذا الدهر » . اما الديوان الثاني « حديقة الشتاء » ، والديوان الثالث قيكادان يخلوان من القصائد التي تصور هموم القرية . والديوان الاخير « اجراس المساء » لم يحو غير قصيدة واحدة وهي المسماة « احزان قرية مصرية » ، وجميع هذه القصائد نجدها تحمل رؤية واحدة شاهدة على احوال القرية المصرية وحياة الفلاحين البائسة . وفي كل الاحوال فان

الشاعر برغم ثقافته الانسانية غير المحدودة لم يصل من خلال رؤاه الى تحليل اسباب تلك الظواهر المرفوضة التي لا يرى القرية الا من خلالها - حتى تكتمل الرؤية وتتجاوز مرحلة الافتقاد . وذلك راجع في تقديري لان الشاعر منذ البداية نأى بنفسه عن الانتزاع بموقف فكري او سياسي محدد ، فعلى سبيل المثال لم يتبن الشاعر الفلسفة الوجودية التي اهتم بها كثير من الشباب في الستينات . كما لم يتخذ من الماركسية او الوضعية المنطقية او البرجماتية او غيرها من انفسات لاخرى مسلكاً في حياته ، وذلك عن قصد مسبق . واكتفى الشاعر بالالتزام الانساني العام ، والصدق الشديد مع النفس الذي لم يخرج عنه طوال مسيرته الفنية . وربما كان لنشأة الشاعر ودراسته التقليدية اثر في ذلك ، مما جعل شعره لا يتناول المشكلة الاجتماعية - بشكل مطلق ، وان لمسها على وجوه ابناء قريته في كثير من المواضيع - كما استطاع ان يجسدها ادباء عديدون في اعمال شعرية وروائية .

واعتقد ان تلك التحفظات المسبقة شكلت حواجز في طريق تطور الشاعر الفني والفكري ، ولا يكفي الفنانين والكتاب ان يعرفوا بما يدور في العالم فقط - بل ان من الضروري ان يكون للانسان بوجه عام والفنان بوجه خاص موقفه من ذلك كله . ولا يمكن ان يقبل من الفنان الموقف المثالي فقط بل عليه ان يترك نفسه وسط خضم الصراعات الفكرية الدائرة في عصره التي سرعان ما تجعله ينتمي متجاوزاً في انتمائه مرحلة الادانة والرفض .

وجدير بالذكر ان تلك التحفظات لم تكن تمنع الشاعر « محمد أبو سنة » من التفتي ببطولة كاسترو قائد ثورة كوبا ، او كتابة قصيدة مهداة الى جاجارين اول رائد فضاء في العالم ، وكذلك كتب عن الشهيدة المناضلة شادية ابو غزالة ، وعن عبدالناصر ، وعن عبدالمنعم رياض ، كما غنى لثورة الجزائر . بل ان الشاعر كان على الدوام يعيش احداث عالمه وفي موقف متقدم منه ، يدفعه الى ذلك الموقف عاملان اساسيان : الاول حسه الانساني العام ، والثاني انتمائه المبكر لمدرسة الشعر الحديث ، وهي في مضمونها العام متجاوزة كثيراً المدرسة التقليدية .

ويقول الشاعر في قصيدته المهداة الى شهيدة المقاومة الفلسطينية « شادية ابو غزالة » :

سمعت صوتها  
يجيء من منابع الانهار  
يدع سر هذه الاشجار  
تخيطة النجوم والاحلام  
الوردة الحمراء فوق الشام  
.....

ثم يقول :

لم تحترق اعوامها العشرون -  
من اجل فارس وسيم  
يقيم عند بابها  
ويرتقي اشعة القمر  
اذا اتى المساء  
يبثها لواعج الفرام . .  
شادية . . نابلس

فكان للوسائل والادوات الاخرى دورها في تشييد  
جماليات القصيدة ، وتلك الادوات تتراوح بين الرمز ،  
واستخدام الاسطورة الشعبية ، والتجويد والتركيز  
واللجوء للمنولوج الداخلي او الخارجي ، او التجريد والتركيز  
الذي يصل لحد الغموض ، والتضمين والموتجاف .

ونلاحظ ان ابا سنة كثيرا ما يلجأ للاسطورة  
والتضمين التاريخي في بنائه لقصائده كقالب جمالي يمكن  
ان يحوي بداخله مضمون انقصيدة . والشعراء يلجأون انى  
الرمز الاسطوري حين يريدون ان يعبروا عن شيء ما لا  
يحدده حدود سوى المطلق . فكل اسطورة ترسب معنى  
معينا في نفوس الناس منذ نشأت ، فهي تبعث احساسا  
حضرانيا شاملا يرتبط بنفس الانسان واحتياجاته  
الروحية المهمة مما يؤكد قيمة جمالية عاتية ترتبط  
بعملية الاسقاط التي يلقيها الشاعر دامجا الحاضر  
بالماضي ودلالاته في وحدة جمالية وفنية .

وهذه الصورة الحية التي عبر بها الشاعر عن  
انفعاله ببطولة « شادية ابو غزالة » المناضلة الشابة التي  
قدمت عمرها الفضة على طريق الثورة الفلسطينية ، ثأنها  
مثل مئات الثيبان والشابات من ابناء فلسطين - هذه  
الصورة تعيدنا الى الصورة التي عبر بها الشاعر « احمد  
عبدالمعطي حجازي » عن انفعاله واعجابه بجميلة بوحريد  
في قصيدته « القديسة » من ديوان « مدينة بلا قلب » -  
مهديا القصيدة الى المناضلة الجزائرية . ولا غرو فان  
لا وعي الشاعر محمد ابو سنة يعيد بناء وتركيب الصورة  
القديمة في نسق شعري جديد . وكل من جميلة بوحريد ،  
وشادية ابو غزالة تمثل جانبا من نضال الشعب العربي  
المعاصر ضد الاستعمار سواء في شكله القديم او فسي  
شكله الاستيطاني الصهيوني .

ويقول احمد عبدالمعطي حجازي :

لم تبتسم جميلة  
لم تفرش عشبا بجنب عاشق تحت القمر  
لم تعرف اللثما  
لم تعرف الفرام الا خاطرا ، حلما

ولقد لجأ محمد ابو سنة الى الاسطورة المصرية  
القديمة ايزيس وازوريس في اكثر من قصيدة ، كما انجأ  
الى استعارة القالب القصصي لالف ليلة وليلة في قصيدة  
« حلم ملكي » . كما لجأ للاساطير الاغريقية مثل « بنلوبي  
وبرومثيوس » والاسبانية مثل « دون كيشوت » .  
والشاعر في استخدامه للاسطورة يتخذ طريقتين .  
في الاولى - لا يقيم بناء قصيدته على اساس ما توارد في  
مقاطع الاسطورة القديمة . بل انه يستخدم اسلوب الاحالة  
عليها بعدما يظهر امامه ان هناك معادلا موضوعيا ما بين  
الاسطورة وبين ما يحدث الان . وهنا تكون احالته على  
الاسطورة دون حاجة لاعادتها . ونرى ذلك في قصيدة  
« السر » التي يصف فيها اشاعر منذ البداية كيف  
يصمت الناس ولا يبوحون ، وعندما يضحكون تحدث  
انفجارات مثلما ينشطر الحجر ، فهو ليس ضحكا - مما  
جعله في النهاية يشعر ان القيود من حوله لا تعطيه  
الفرصة كي يتحرك . عند هذا يتوارد في عقل الشاعر  
برومثيوس المقيد في اغلاله التي يريد ان ينطلق منها ،  
فيقدم الاحالة على برومثيوس مبررة بعد ذلك التقديم  
الطويل . ونرى نفس الاحالة في استخدام الاسطورة  
ايزيس وازوريس في قصيدة « الاغنية المرحة » ، فبعد ان  
يصور حالة حزنه الدائمة التي تعترض عليها حبيبته ،  
بينما هي لا تعرف ذلك الحزن ومبعثه ، تكون الاحالة  
ويقول :

يا سوستني حقا لم اخلق هذا العالم  
لكني عانيت عذابه

احمل في عمق الاعناق ترابه  
اقسم اني لا اعشق هذا الحزن  
لكن يا سوستني لو كنت اتيت الى قريتنا  
او كنت رايت جنازة ازوريس  
كل القرية كانت تبكي نعشا اخضر

\*\*\*

وابو سنة كشاعر حديث تحددت ادواته الفنية ضمن  
الادوات التي طالما استعملت في بناء القصيدة الحديثة ،  
التي تخلصت من الفئائية التقليدية القائمة على القافية  
الموحدة ، وعدد التفعيلات المتساوي في ابيات القصيدة .

القديمة على الخير والشر كقضيضين اساسيين ، لكنه هنا كان يحكم بشريعة عمياء ضد الناس حتى انه فسي النهاية ادرك في الحلم ما سينظره .

\*\*\*

اننا بعد ذلك كله نستطيع ان نحدد بوضوح ان « محمد ابراهيم ابو سنة » لم يكن شاعراً رومانسياً بالمفهوم التقليدي كما يقول عنه البعض متخذين من اهتمامه بالمرأة واعطائه للحب نصيباً كبيراً من اهتمامه سبباً في اطلاقهم هذا الحكم . فالمرأة في الشعر الرومانسي تكون محورا اساسياً ، وموضوعها يكون اكثر اهمية لدى الشعراء الرومانسيين - ولكن ولع الشعراء بالمرأة سيظل موجوداً في ظل كل الظروف .

ومحمد ابو سنة يختلف عن هؤلاء في انه لا يعتمد في تناوله للمرأة على الخيال والاهام بعيداً عن الممارسة والتجربة . بل ان تجاربه دائماً وليدة معاشة حقيقية ، ونتيجة مشاعر واقعية ، وان اصابها الاحباط فتلك آفة اخرى تصيب جميع الناس الذين تتجاوز اهتماماتهم الخاصة الاحتياجات السطحية والمحدودة المظهرية للعلاقة بالمرأة . والحب عند ابي سنة حب في حالة ازمة وانحسار نتيجة ظروف مختلفة مما يجعله يعود الى غربته ووحدته . لذا فهو كغيره من شعراء جيله يحمل بداخله نزوعاً ما الى الرومانسية تثيره دائماً وتحد منه الثقافة والمعاشة الكاملة للواقع بتوتراته الدائمة .

وفي النهاية - وبعد الجودة المتأية في انتاج محمد ابو سنة الشعري ، وبرغم ملاحظتنا المحدودة عليه - نرى انه كان ضمن هؤلاء الشعراء الذين صمموا مخلصين على السير في الطريق الذي عبده رواد القصيدة الحديثة في استخداماتها المختلفة ، التي وصلت بها الى درجة عالية اثناء تعبيرها عن انسان العصر . ولم يكن بعيداً عن احداث عصره المتغير ، وان لم ينفس في اجزاء الصورة . الا انه كان دائماً يجد ما يلتقطه ويصوره بلعانة شديدة مقدماً شهادته عليه في كل الاحوال .

القاهرة

## مكتبة النوري

معلق - تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى

دور النشر اللبنانية والعربية في

القطر السوري .

والاستخدام الثاني للاسطورة يتخذ طابعا درامياً ، حيث يقيم الشاعر بناء قصيدته الفكري على جسد الاسطورة القديمة المترسبة في نفوس الناس - مما يبعث بالقصيدة جمالا داخلياً يحسه المتلقى من اعادة رسم الجو القديم الذي كثيراً ما سمع او قرأ عنه . ولا تكفي هنا الاحالة وربما لا يذكر الشاعر اسم الاسطورة . ويكفي ان يقيم ما يدور الان في الواقع على ما كان يدور في الاسطورة القديمة وبين سطورها . وقد قدم الشاعر ذلك في قصائد عديدة ، حيث يقاب عليه ذلك الاستخدام مثل قصيدة « دون كيشوت على فراش الموت » من ديوان « اجراس المساء » التي يدين فيها الشاعر عالمنا المعاصر الذي خلا من النبيل والفروسية والامان والحب بعدما وصل البطل الى الموت . وفي هذا يستخدم الشاعر مساقته الاسطورة عن طباع دون كيشوت كي يسقطه على حياتنا في القرن العشرين . وذلك الاستخدام لا يقتصر على اعمال الشاعر الاخيرة ، بل انه يتخذ منذ البداية ايضاً ، ففي قصيدته « قلبي وغازلة الثوب الازرق » يحمل اسم القصيدة نفسه معنى الاسطورة القديم « بنلوبى » في انتظارها الطويل لادوسيبوس . اما قصيدة « حلم ملكي » ، فهي تستخدم ما سردته حكاية الف ليلة وليلة عن الملك الذي يتخذ كل ليلة امرأة - لكن شهريار في الحكاية كان آمن على حياته حيث عصر الملوك . اما العصر الذي يخاطبه الشاعر فهو عصر الديمقراطيات ، والملك يحلم بالكابوس الذي سوف يداهمه لان الجميع يتأمرون عليه ، ولم تنفع شريعته العمياء ، ولا بد في النهاية ان يهرب الملك السنى الغيبيات . ويقول في القصيدة :

حكمت بالشريعة العمياء

قانون دولتي

الخوف حارس السلطان

انام كل ليلة بحضن جارية

ويشهد القضاة اني اعف من حكم

.....

فتحت باب مخدع على اليمين

رايت زوجتي

رايت زوجتي

تنام في احضان عبدها

فتحت باب حجرة على اليسار

رايت صادق الوزير

وبعض سادة البلاد

يدبرون كيف يقتلونني على السرير .

وذلك الملك المعاصر الذي يصوره الشاعر بعدما بعثه من الحكايات الشعبية ليس له مكان في حياتنا . ولقد بنى مضمونه الذي تضمنته القصيدة على الاسطورة . وبذلك اثرتنا القصيدة بحسها الدرامي المتفجر لاحتوائها على الجو التاريخي والاسطوري الذي يتأسس في الحكاية